تطوّر العلوم في الإسلام وحوار السّلام بين أديان التّوحيد (رحلة عبر اللّغات)

محمود عزب

أستاذ الحضارة الإسلاميّة

في المعهد الوطني للغات والحضارات الشرقيّة – باريس.

مدخـــل :

منذ عدّة سنوات يجذب حديث حوار الحضارات، أو الحديث حول حوار الحضارات والثّقافات والأديان المفكرين والباحثين رجالا ونساء من كلّ الاتجاهات، وكذلك من كلّ الجمعيّات والجامعات ومراكز البحث في الشّمال وفي الجنوب، في الشّرق وفي الغرب.

إنّ مصطلح "حوار" يكتسب أهميّة جديدة. وتنطلق أصوات حيويّة تدعو إلى الحوار تعكس قلقا حقيقيّا، وربّما خوفا ممّا يسمّى "صراع الحضارات"، أو "صدام الحضارات". ويجب إذن أن نفهم تلك الرغبة في الحوار بوصفها ابتداعا مع نهاية الحرب الباردة.

إنّ هدفنا الرّئيسي خلال هذا المقال، هو إلقاء الضوء على نوع مخصوص من الحوار في مجال العلوم الإنسانيّة والعلوم التجريبيّة، في الفكر

والثّقافة. ويرجع ذلك تاريخيّا إلى عصر الخلافة الأمويّة. وتتأسّس بدايات هذا الحوار على المعيش اليومي. وفي الحقيقة يجب أن نذكّر بأنّ أوائل الخلفاء في دمشق، قد تركوا شؤون الحياة الإداريّة في أيدي أهل البلاد الأصليّين، من دخل منهم في الإسلام ومن لم يدخل.

واللّغات الأصيلة للبلاد قبل الإسلام استمرّت إذن في حمل تلك المهمّة في شؤون الإدارة والحياة اليوميّة.إنّ تلك الممارسة قد استمرّت حتّى سنوات 65-67 للهجرة (685-705م) أي حتّى خلافة عبد الملك بن مروان خامس خلفاء بني أميّة الذي بدأ ترجمة سجلات الدولة والإدارة، سك العملة في شكل أول دينار عربي إسلامي من الذهب الخالص. حتّى ذلك الوقت كان الخلفاء يقصرون نشاطهم على نقطتين أساسيّتين هما :

رئاسة بلاط الخلافة وقيادة الفتوحات.

خلال هذه المرحلة من تاريخ الإسلام كانت الأبواب مفتوحة على مصاريعها للثقافات البيزنطيّة، واليونانيّة، والفارسيّة والمصريّة. إنّ الأمير الأموي خالد بن يزيد، الأمير الطّموح (700-720م) هو الذي قرّر بشكل محدّد إثراء مكتبة معاوية بن أبي سفيان مؤسّس الأسرة الأمويّة :

"عندما أراد خالد أن يتكرّس للخيمياء، كما يقول ابن النّديم، فقد دعا عددا من الفلاسفة اليونان المقيمين في مصر والذين يتمكّنون من اللّغة العربيّة بوضوح وفصاحة طلب إليهم أن يترجموا من اليونانية والقبطية كتب الخيمياء. وكانت تلك هي أولى الترجمات التي تمّت في العالم الإسلامي" (1).

كانت تلك إذن نقطة البداية لحوار ثقافي وعلمي حقيقي، قائم على اللّغات. نعني هنا أوّلا اللّغتين اليونانيّة والقبطيّة من بين لغات العلوم اللّتين

1) VERNET Juan : ce que la culture doit aux Arabes d'Espagne, Sindbal, Paris, 1985 p.99. selon Ibn Al Nadim.

ما تدين به الثقافة لعرب إسبانيا (نقلا عن ابن النديم).

دخلنا إذن في حوار مع اللّغة العربيّة التي أرادت بكفاءة أن تنفتح لتلقى العلوم أعني التي أرادت وقرّرت أن تصبح بدورها لغة العلوم...

وهكذا رغم أنّ الحوار بين الثّقافات والحضارات الإنسانيّة كان أقدم من ذلك بكثير، فهو قديم قدم الحضارات الإنسانيّة على الأرض، فإنّنا سنتخذ هذا الحدث من العهد الأموي نقطة انطلاق لحديثنا هذا.

وبعد ذلك سنعاصر إنشاء مدينة بغداد وتأسيسها عاصمة جديدة للإمبراطوريّة العربيّة الإسلاميّة (144هـ/762م) فإنّ أبا جعفر المنصور الخليفة العبّاسي الثّاني (136-158هـ/754-759م) مؤسّس مدينة السّلام المسمّاة كذلك مدينة أبي جعفر، ومدينة الخلفاء، قد طلب من إمبراطور بيزنطة الذي امتثل، إرسال كتب الرّياضيات، ممّا سيسمح له بتملك نصوص إقليدس ومؤلفات أخرى في الفيزياء.

وفي أواخر حياة المنصور، كان المسلمون قد استطاعوا أن يقرؤوا ترجمات من اللغتين الفهلوية والسنسكريتية كتاب "كليلة ودمنة" وكتاب "السند هند" وأربع ترجمات من اليونانية لكتب أرسطو على المنطق الأورجانون المجسطي وعناصر إقليدس وحساب نيقوماك (؟).

1- الحدث الظّاهرة :

إنّ إرادة جماعية دعت في تلك الفترة إلى الحوار، ونحن مازلنا في بغداد، تحت خلافة المأمون سابع الخلفاء العباسيّين (198-212هـ/813-633م). يحدثنا ابن النّديم (توفي بعد سنة 1000م) في فهرسته عن رؤيا المأمون في روايتين، الأولى :

"إنّ المأمون رأى في منامه رجلا أبيض البشرة مشربا بالحمرة مشرق الجبين متصل الحاجبين أصلع الرأس ذا عينين زرقاوين ومنطق رائع. كان جالسا على عرش. يقول المأمون تقدمت إليه فملأني إجلالا ورهبة فسألته :

-من أنت ؟

أجانبي :

-أنا أرسطو...

فسعدت، وقلت له :

-أيّها الحكيم – هل أستطيع أن أوجه إليك بعض الأسئلة ؟

-سل

-ماهو الجمال ؟

-ما يجمل في الشّريعة.

-وماذاك ؟

-ما يقبله الجمهور.

-وماذاك ؟

-توقف عن الأسئلة!

وفي رواية أخرى :

-قل لي شيئا آخر!

-إن من ينصحك بالذهب، يعدل لديك الذهب

احترم الوحدانية (وحدانية الله) [2].

وسواء كانت قصّة هذه الرؤيا حقيقية أو لم تكن، فإنّ السّبب الحقيقي الذي حدا بالمأمون إلى جمع المخطوطات والكتب اليونانية عن طريق سفراء إلى إمبراطور بيزنطة، راجيا إياه إرسال كتب الفلسفة على وجه الخصوص. فإنّ السؤال الواجب توجيهه في هذا السّياق وهو من الأهميّة بمكان، في هذه الفترة من تاريخ الإنسانيّة، هل كانت علوم اليونان معروفة وتدرس في الشّرق

2) المرجع ذاته – ص 100 (استشهاد فرنيه بفهرست ابن النّديم).

أو في الغرب المسيحي ؟ إنّ الإجابة التي يطرحها المؤرّخون تقول بالنفي القطعي. في كتاب "خوان فيرنيه" ما تدين به الثّقافة للعرب في إسبانيا نقرأ :

"في نصف القــرن الذي يلي، يمكن أن نقــدر، في غياب المعــطيات (à défaut de données)، أنّ المكتبات في الإسلام استمرت في إثراء ذاتها. إن قيام الخلافات العباسية قد سارع باقتناء المخطوطات. كان الهدف هو حيازة أكبر عدد ممكن منها في أقل وقت ممكن" [3]

في مقابل هذه الظّاهرة المتنامية في عهد المأمون بمساعدة وجهاء بغداد، ولدت ظاهرة موازية في الغرب الإسلامي، خصوصا في الأندلس وهكذا لا يمكننا قبول نظريّة البحاثة والمؤرخين الّذين يقدرون أنّ أوائل الأمراء والخلفاء العرب كانوا يجمعون ويترجون المؤلفات اليونانية والفارسية والهندية، وكان المثقفون ينكبون على قراءتها ودراستها بهدف واحد هو القدرة على المناظرة والإجابة عن أسئلة غير المسلمين من شعوب البلاد التي فتحها الإسلام، وعلى وجه الخصوص تلك الأسئلة التي تدور حول الدّين، للدّفاع أو لإقناع الخصوم. صحيح أنّ هذا الهدف كان حاضرا ولكنّه كان يعتبر ثانويا إذا ما قورن بالأهداف والسياقات الأخرى. كما يجب أن نذكّر هنا بمثال الأمير خالد بن يزيد وبمثال أبي جعفر المنصور، وأولّهما مغرم بالكيمياء والآخر بالعلوم البحتة. وكذلك ما يخصّ بني موسى وغرامهم بالهندسة والرياضيات والجبر: كيف يمكن تفسير غرامهم هذا بوصفه في إطار المناظرة فحسب. وهكذا نعود إلى ما كتبه المؤرّخ المستشرق الإسباني خوان فيرنيه :

"إنّ سلوك الخلفاء قد صار تقليدا لدى من يحيطون بهم، ومن يقومون بخمتهم والذين كانوا يسارعون إلى اقتناء المخطوطات العلمية بأثمان عالية من الذّهب" [4].

3) المرجع السّابق، ص 102

4) المرجع السّابق، ص 102

وبعد الفتوحات، فإنّ ترميم قواعد الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثّقافية، وبعد قرن من الزّمان، فإنّ الظروف صارت مواتية تماما لرؤية إشارات وعلامات ميلاد حضارة جديدة، ونحن نعلم أنّ الكتب المشار إليها آنفا والتي جلبها البطريق (مابين 796 و806م)، أبو يحيى، ثم قسطا بن لوقا (ت 912م) وسلام بن الأبرش (مابين 786 و805م) وجبريل بن نجتيشوع (ت 828م) وخصوصا الأخوان بنو موسى اللذّان كانا يندفعان بشراهة إلى العلوم القديمة.

"لقد خصّصا لذلك النّشاط كلّ اهتمامهما وبذلا جهودا جباة. لقد بعثا إلى بيزنطة حملة للبحث عن الكتب. وقد عينا مترجمين جاؤوا من كلّ صوب وحدب ودفع لهم أجورا عالية، وهكذا أخرجا إلى عالم النّور روائع الحكمة. والعلوم التي كانت تهمهما أكثر كانت الهندسة والميكانيكا والموسيقي والفلك" [5].

فضلا عن ذلك فإن المؤرخين المحدثين ينقلون إلينا عن القدماء وخصوصا عن ابن النديم : "كان من بين أولئك الّذين ذهبوا إلى بيزنطة لحسابهم، حنين بن إسحاق، والكتب التي حصل عليها كانت تناسب ميولهما وهي الفلسفة والهندسة والموسيقى والحساب والطب" [6].

إنّ هذه التّفاصيل الواردة في المراجع المتّفق عليها والمعترف بها ترد كذلك على نظريّة كارل هينريش بيكر الذي يقول : "إنّ الإسلام في القرن التّاسع قد لجأ إلى اليونان طالبا العون من علومها ليستطيع مقاومة الغنوص الشرقي، وهكذا يمكننا أن نفهم حماس الخليفة المأمون وتشجيعه ترجمة أكبر عدد ممكن من كتب الفلسفة اليونانيّة إلى اللّغة العربيّة، وهو حماس غريب نوعا ما عندما يأتي من الشرقيين" [7].

5) المرجع السّابق، ص 103، استشهاد بابن النّديم
6) المرجع السّابق، ص 104، استشهاد بابن النديم.
7) بالألمانية C.H.Beecker
ترجمة عبد الرحمان بدوي. التراث اليوناني في الحضارة العربيّة، ط القاهرة، 1965.

ولكن لماذا التأكيد على الترجمة وحدها؟ ألم تشهد نهاية القرن الأوّل الهجري/الثامن الميلادي ميلاد بدايات المذاهب والمدارس الفقهية، وأصول الفقه، وعلم الأصوات وعلم القراءات القرآنيّة، وعلم النّحو العربي، وتفسير القرآن، تلك العلوم التي ستحتلّ بسرعة مكانة كبرى في الحياة العربيّة الإسلاميّة؟ وهذا لا يمنع أنّه في القرنين الثالث والرّابع الهجريين/الثّامن ميلادي بدأ وبتركيز شديد الدخول في عصر التّدوين، وأنّ هذه العلوم الأولى ستتطور كثيرا بمرورها من الشفاهيّة إلى الكتابة.

2- **اللّغات والتّرجمات..** اللّغة العربيّة لغة استقبال، في ذلك السّياق التّاريخي، تتلاقى ثلاث لغات في بيت الحكمة في بغداد.

3- اللّغة اليونانيّة، لغة المخطوطات وكتب العلوم :

في العهود الغابرة، ولعصور طويلة كانت تلك اللّغة تغطى مناطق كثيرة واسعة من اليونان على الشاطئ المتوسط، مرورا بالشرق الأوسط القديم وبمصر، وخصوصا بالإسكندريّة حيث كانت لغة التّدريس في الجامعة ولغة العلوم. لقد لعبت دورا مع ذلك في حوض المتوسّط، فيما قبل المسيحيّة، نفس الدور مثل اللغة الآرامية القديمة التي كانت فيما قبل لغة الإدارة في الشرق الأوسط القديم كما كانت منتشرة نسبيّا في بلاد الفرس ومستعملة نسبيا في مصر القديمة. إن الآرامية كانت في الواقع قد وجدت في رسائل تل العمارنة وفي العديد من البرديات وذلك فيما بين عهد الإسكندر الأكبر (ت 323 قبل ميلاد المسيح) والغزو الروماني الذي خلاله تمّ هضم العديد من عناصر الثقافات السامية والفارسية. إنّ هذه اللغة الآرامية ستخلد فيما بعد خلال عهد الإمبراطورية الرومانية الشرقية (476-1453م) في بيزنطة مع الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية، وحتى وصول الإسلام.

وهكذا نتكلّم عن اللغة الآرامية دون تصوّر أنّ العلوم المكتوبة بها كانت تنام "في بطون المخطوطات". لم تكن تلك العلوم تمارس ولا تدرس لا في أوروبا ولا في الإمبراطورية البيزنطيّة.

وفي هذا الصّدد يقول عبد الرحمن بدوي :

"كان المترجمون في بغداد هم أوّل من اهتم، إذ إنّ أوروبا كانت شبه خاوية من علوم اليونان، ولم يكن يوجد إلاّ بعض نصوص جافّة وعميقة، نشرها نشرها مارشيانو كابيلا، الذي عاش في شمال إفريقيا في عهد الوندال في القرن الخامس الميلادي أو التي وضعها بوتيوس في القرن السّادس في إيطاليا، في عهد القوط الشرقيين، أو تلك التي كتبها القديس إيزيدور الذي عاش في إسبانيا في القرن السّابع في عهد القوط الغربيين وأخيرا ما كتبه في القرن الثامن بيدي "الموقر" الذي عاش في بريطانيا. وهذه المتون كلها كانت مجرد خلاصات شاحبة لآثار ضئيلة من العلم اليوناني. فبقيت الدّراسة في أوروبا تافهة كلّ التفاهة، محصورة في فئة نادرة من الرهبان" (8).

2-2- **اللّغة الفهلوية** : اللّغة المتحدثة في بلاد الفرس إبان العصر السّاساني لغة وسط إيران وغربها والتي تعتبر الفارسية فرعا منها. (الأسرة الهندو أوروبية).

لقدكانت اللّغة الفهلويّة على اتّصال باللّغات المجاورة العربيّة واليونانيّة والآراميّة ثمّ السريانية والهندية. وفي الواقع إنّ الحدود الفارسيّة- السّامية والفارسيّة- اليونانية لم تعق الاتّصال والتّواصل بين الثّقافات، الأديان والعلوم، كما أنّها لم تعق التّأثيرات اللغوية المتبادلة..

ولننظر أوّلا إلى الحوار بين الفرس والمسيحيين في الشرق في أرض الرافدين :

ثمّة مصادر تؤكد أنّ ماني (ولد سنة 215م) لأب مسيحي، وأخرى تقول إن أباه كان بوذيا، وثالثة تعتقد أنّه كان صائبا، مما يشير إلى أنّه استطاع أن يتلقى تكوينا متعدّد الثّقافات. إذ كان ذلك مألوفا في تلك المنطقة (منطقة الرافدين) قبل وصول الإسلام. وتحدّد المصادر ذاتها أنّ القديس أوغسطين

8) بدوي عبد الرّحمان : دور العرب في الفكر الأوروبي، القاهرة، 1967، ص ص 7-8

(ص 124 ترجمة يوحنا الحلو. المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، 1962) كان من بين مصادر تعاليم قاني أساطير يونانيّة. وقبل الذهاب للقاء بهرام بن شابور، الذي لا يثق فيه، قد توجه إلى حوارييه قائلا : "انظروا إليّ جيّدا يا أبنائي لأنّ جسدي سيخرج عما قريب. انهلوا من نورى مادام بينكم" في هذا السّياق ألا يمكن الكشف عن وجوه شبه مع خطاب يسوع المسيح ؟.

إنّ الاتّصالات اللّغويّة والثّقافيّة المتبادلة بين الفارسيّة والعربيّة قبل الإسلام معروفة، والكلمات الأعجميّة (الفارسيّة) في القرآن الكريم، وكذلك دراسات أهل الاختصاص في عربيّة القرآن تشير إلى أنّ تلك الكلمات، كانت قد تسربت إلى العربية ودخلتها فيما قبل الإسلام، وأنّها قد تمّ التعرّف عليها واستخدمت وانسلكت في استخدام العرب اللّغوي.

أمّا تأثير اللّغة العربيّة في اللّغة الفارسيّة قبل الإسلام نسبيّا وبعد الإسلام عموما، فإنّها من الوضوح بل ومن البداهة بمكان.

2-3- اللّغة السريانية : وريثة الآرامية. لغة سامية كذلك مازالت لغة حية حتّى اليوم في بعض قرى العرق وسوريا. لقد كانت ومازالت لغة النّصوص الدينيّة المسيحيّة، ولغة الأناجيل على وجه الخصوص، ولغة الأدب والشّعر المسيحي.

كان الرّهبان والقساوسة قد ترجموا العديد من المخطوطات والكتب اليونانيّة إلى هذه اللّغة قبل الإسلام وقبل فتوحاته. السريانيّة إذن كانت على صلة باليونانيّة من جانب وبالفارسيّة من جانب آخر. كانت إحدى اللّغات القليلة حاملة العلوم، لغة علم، حتّى لا نقول لغة علميّة بدرجة ما.

إنّ التّراجمة السريان في "بيت الحكمة" حسبما تقول المصادر التّاريخيّة، بل وقبل إنشاء المأمون "بيت الحكمة"، كانوا غالبا متعددي اللّغات. أو ثلاثي اللّغات على الأقلّ، أي متمكّنين من اليونانيّة ومن العربيّة، ومن السريانيّة لغتهم الأمّ.

كما كانت اللّغة السريانيّة، السّامية كذلك، على اتّصال وثيق باللّغة العربيّة قبل الإسلام، كانت الأبجديّة السريانيّة المعدلة والمتطورة قد دخلت الاستعمال العربي قبل الإسلام. وفي هذا السّياق، يجب أن نذكر بالمخطوطات الأولى للقرآن الكريم نفسه، وكذلك بقصة أحد كتاب الوحي زيد بن ثابت الذي كان قد تعلم هذه الكتب خصوصا ليسجل النصّ القرآني.

إضافة إلى ذلك يجب أن يذكر، في السّياق ذاته، موضوع "السّريانية أو ذات الأصل السرياني ضمن قائمة الكلمات الأجنبيّة أو المعربة في القرآن الكريم (انظر الزّركشي (ت 794هـ/1392م) وكتاب البرهان في علوم القرآن "ثم" السيوطي (ت 1505م) وكتاب "المذهب فيما وقع في القرآن من المعرب" أو/وكتابه "الإتقان في علوم القرآن" وضمنه فصل المعرب والدخيل.

ولكن القرابة القريبة بين السريانية والعربيّة، وقضية الأصول السامية العامة أو المشتركة المعروفة، ووحدة الجذور كلّ ذلك يظلّ في نظرنا عائقا كبيرا وحاجزا يدعو إلى ضرورة الحذر من حسم سريع وقول أكيد بأصول عبرانيّة أو سريانيّة في القرآن، مادامت المشترك بل والتّوحد في الجذور والأصول مقولة يتّفق عليها علماء الساميات القدماء والمعاصرين... فالمسألة أكبر دقة وأكثر مزالق من مسألة المفردات الأجنبية كالفارسية والرومية وغيرها..

3-2- اللّغة العربيّة :

إحدى كبريات اللّغات السامية وأقدمها، وهي كذلك من أكثر اللّغات حفاظا على القديم، وهي التي تبقى على الخصائص الصوتيّة والصرفيّة السّامية الأكثر قدما، مثل حروف الحلق، وحروف الإطباق مثل صيغ الفعل والمثني الاسمي والضّميري وتفاصيل الدقيقة في بعض اللغات السّامية، أو قلت وتضاءلت في بعضها الآخر. كما أن حركات الإعراب (الرفع والنصب والجزم والجر) مازالت موجودة بتمامها حتى في العربية الحديثة والمعاصرة بينما لا نشهد إلاّ آثار حالات قليلة في العبريّة والآراميّة والحبشيّة. ممّا يدفع كثيرا من

علماء السّاميات إلى القول بأن الإعراب في العربيّة هو ابتداع وتعميم من النحويين العرب بعد الإسلام. وإن كانوا مردودين بحجج علميّة لغويّة نصيّة كثيرة، لا يتّسع المجال هنا للحديث عنها، وفي مقدمتها وجود النّظام الإعرابي كاملا تقريبا في النّصوص الأكادية مثل قوانين حامورابي وملحمة جلجامش ووجود آثار حالة النصب في العبرية والسريانية .. (انظر بدل كراوس ورمضان عبد التّواب). وذلك يدعونا إلى القبول بقولة أخرى أقرب إلى العقل والتصوّر وهي أن هذا النّظام (الإعرابي)، النّحوي موجود من الأصل في السّاميات القديمة ويستدعي هذا التصوّر وجوده في السّامية الأم نظريا. وثمّة فرعان للغة العربيّة القديمة :

- العربيّة الجنوبيّة في اليمن ذات المصادر الغزيرة التي مازالت تدرس حتّى اليوم وغن كان ذلك بشكل غير كاف، والتي مازالت آثارها وبقاياها مستمرة خلال لهجات اليمن الحديثة وحتى اليوم.

- العربيّة الشمالية، فمن نافلة القول أنّها قد خلفت شعرا ناضجا ومتقدما جدا في لغته وتقنيته عروضا وقافية وصورا شعرية. إنّه ما يسمّى بالشّعر الجاهلي وهو يعتبر أكبر مصدر يحفظ التّقاليد والأعراف للقبائل العربيّة قبل الإسلام. ومنذ بدايات الإسلام وبدايات التدوين صارت هذا القصائد "المعلقات" هي المرجع الرّئيسي للدّراسات الأدبيّة واللغويّة للقرآن، وللإسلام بشكل عام.

ولكن النصّ القرآني هو المرجع التّاريخي للغة العربيّة، إنّ النصّ القرآني في الواقع لا يعتبر معجزة روحيّة ودينيّة ومرجعا تاريخيّا وثقافيّا فحسب، وإنّما يعتبر قبل كلّ ذلك أو مع كلّ ذلك كنزا لغويّا وأدبيّا.

وهو قد وهب الخلود لتلك اللّغة العربيّة، لقد كان يرسل ويسافر مرافقا الفتوحات منذ القرن الأول الهجري، وبقي يرافق اللغة العربيّة ودراساتها.

ولو كانت العبارة العربيّة المأثورة تقول إن "الشعر ديوان العرب" فإن قولنا بأن القرآن هو ديوان العربية وهو المرجع الديني والثقافي والاجتماعي للعرب، حتى من غير المسلمين هو بدوره صحيح تماما.

ورغم أنّ التاريخ ليس هدفا أساسيّا في ذاته للنصّ القرآني إلاّ أنّه بدون أدنى شكّ يعتبر مصدرا غنيا بل هو أغنى المصادر للشّهادات والدّلالات الثّقافية والاجتماعيّة واللغويّة لحياة العرب خصوصا من قبل الإسلام، إنّ الدراسات اللغوية للقدماء والمحدثين، للمسلمين وغير المسلمين لعلماء السّاميات وغيرهم تتحدث عن الكلمات الأجنبية أو الأعجميّة أو المصرية في القرآن الكريم والآتية من لغات مجاورة، كلمات كانت قد سافرت من أنحاء مختلفة واستقرت أخيرا في القرآن. وهذه الدّراسات تؤكّد أنّ العرب ولغتهم لم يكونا قطّ معزولين في شبه جزيرتهما العربيّة. إنّ الأسفار والتّجارة وعلاقات الحرب والسّلم تقول إنّ ثمة كانت حوارات واتّصالات كبرى.

كان اليهود والنصارى العرب من قديم الزمان يكتبون شعرهم بالعربية كما كان الكتاب المقدس، بعهديه القديم والجديد كان قد ترجم للغة العربيّة منذ عهود قديمة، وقصص الأنبياء خصوصا وهو في أغلبه عام ومشترك بين عبرية العهد القديم وآراميته وسريانية العهد الجديد أحيانا، وبين عربيّة القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا. كما أنّ طقوسا عديدة في الأديان القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا. كما أنّ طقوسا عديدة في الأديان السماوية الكتابيّة الثلاث تدخل ضمن حقل واسع يتجلّى خلاله حوار لغوي وثقافي وحضاري خصب.

فيما يخصّ الكلمات المسافرة من لغة سامية أو غير سامية إلى أخرى، فإنّنا نسجل هنا أنّ الباحثين والدّارسين المعاصرين، (أحيانا بأيّة وسيلة كانت يحاولون إرجاع كلّ كلمة إلى لغة أم أصيلة مع تحديدات غير دقيقة وبتوثيق ضعيف غالبا، وكثيرا ما يؤكدون غير المؤكد ويعممون بسرعة مخلة. ويظهر ذلك بكلّ وضوح عندما يتعلق الأمر بإشكاليات المعرب في النصّ القرآني. وتتعقّد الإشكاليّة أكثر وينتابها الغموض والتعميم والأحكام المسبقة على وجه الخصوص عند تناول الكلمات السّامية الأصليّة لغة سامية أعطت الأخرى أو أخذت منها.. ومن ثمّة هذا التأثير أو التأثّر بين لغة سامية وأخرى سامية مثلها؟ وفي أي سياق تاريخي وثقافي ؟

وكثيرا ما ينسى أنّ بعض اللّغات لم تكن إلاّ محطّة عبور أو جسرا تمرّ عليه الكلمة المسافرة من لغة أبعد إلى تلك اللغة الوسيطة، ثمّ تعبر وتمر إلى لغة ثالثة.. وأحيانا ما تعود إلى لغتها الأولى التي تكون قد نسيتها تماما والأمثلة على ذلك كثيرة.

المهم أنّ اللغة العربيّة لغة الشعر فيما قبل الإسلام، صارت لغة جدال وفكر عقلاني، ولغة حياة روحيّة وإيمانيّة مع الوحي القرآني، وهي ستلتقي في بغداد المأمون في القرن التاسع الميلادي باللغة السريانية، وباللغة الفارسية، وباللغة اليونانية في بيت الحكمة.

4- العلوم اليونانية لدى السريان في الشرق الأدنى:

قبل الإسلام بزمن طويل، كان الفكر والعلوم اليونانية قد عزت الشرق الأوسط، ونلاحظ ذلك في "الرها" و"نصبين" و"جنديسبابور"، و"خوزستان" من الجانب النسطوري، ثم في "أنطاكية" و"آمد" (اياد بكر) من الجانب اليعقوبي.

وهكذا يمكن أن نتكلم عن بعض المدارس الملحقة بالأديرة كما يقول السمعاني (انظر الجزء الجزء الثالث ص 934-947) وكما يقول دوفال في "الأدب السرياني" (ت باريس 1899م) حيث كانت المدرسة تسمى بالسريانية "اسكول" مشتقّة من اليونانية scholé، وتعربت فيما بعد "اسكول" لتعني تحديد المدرسة الملحقة بالدّير. لقد كانت هذه المدارس في أغلبيتها لاهوتيه ودينية وكانت تسمح كذلك بتدريس العلوم غير الدّينية مثل النّحو، والبلاغة، والفلاسفة، والطبّ، والموسيقى والرّياضيات والفلك.

إن مراكز العلوم، والطب وعلى وجه الخصوص مدرسة نيسابور في عصر الخليفة المأمون (القرن التّاسع ميلادي. 813 م-833م) بدأت تفقد أهميتها. وكان كبار الأطباء والعلماء قد بدأوا يتوجهون إلى بغداد التي بدأت تفتح أبوابها على مصاريعها لاستقبالهم. إن ظاهرة الهجرة بدأت تتكاثف، ويمكن تفاصيل جديدة ونقدا في كتب تلك الفترة ولدى كتابها مثل الجاحظ الذي يصور ذلك في

أحد أشهر كتبه "كتاب البخلاء" من بين كبار الأطباء الذين استقبلوا أحسن الاستقبال يوحنا بن ماسويه (ت857 م) الذي عمل في خدمة الرشيد ومن تلاه في الخلافة حتى الخليفة العاشر المتوكل (847م-861م) كان الرشيد قد كلفه بترجمة بعض كتب الطب، وكان قد أنشأ في بغداد مستشفى كبيرا، ثم عينه الخليفة المأمون عام 830م رئيسا لبيت الحكمة.

وكان حنين بن إسحاق الشهير تلميذه ومريده، وقد عرف فيما بعد بصفته كبير مترجمي العلوم إلى اللغة العربية.

إن القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد يعتبر قرن الترجمة بامتياز وقرن إثبات العلوم وتطويرها في اللغة العربية، تلك العلوم التي كانت قد بدأت قبل ذلك بكثير، وقبل الترجمة، ونقصد بالعلوم هنا علوم اللغة والتفسير والبلاغة والفقه والعروض، والسيرة النبوية، وبدايات علم الكلام. وهذه العلوم التقليدية سوف تبادر بالإفادة من الترجمة ومن ثمراتها في الفكر العربي الإسلامي كما سيتطور "علم الكلام" على وجه الخصوص بشكل ملحوظ، كل ذلك بموازاة علوم القدماء (اليونان والفرس والهنود)، التي رسخت في بغداد ثم بعد ذلك في عواصم العالم العربي الإسلامي.

إن الشهرستاني (ت 1085م) وابن النديم (ت بعد سنة 1000م) يخبران بأنّ الأغلبيّة الساحقة من المترجمين كانوا نصارى، وأنّ أكثريّتهم كانوا راسخين في اللّغات السريانية واليونانية والعربية، وأنّ السريانية كانت اللغة الوسيطة بين اليونانية والعربية. إنّ الجانب التقني للترجمة ولتطور اللغتين الساميتين (السريانية والعربيّة) لتصبحا لغتي العلوم مازال يحتاج إلى بحوث ودراسات وتحليلات كثيرة، وخصوصا في مجال الترجمة بين اللغات السامية (السريانية والعربية والعبريّة).

إنّ المشاكل ذات الطّابع الدلالي والصوتي والصيرفي تؤدّي دورا كبيرا في تطور اللغات. ولقد كان المترجمون يضطرون إلى ممارسة نوع من تبني المفردات والمصطلحات التقنية اليونانية في اللغة السريانية أولا ثم من تلك إلى

اللغة العربية ثانيا، وذلك ما ستفعله العبرية عندما يأتي دورها لغة وسيطة فيما بعد في الأندلس في القرن الثّالث عشر الميلادي بين اللغة العربية لغة العلوم إذ ذاك وبين اللغة اللاتينية أو اللّغة الاسبانيّة النّاشئة.

وليست المصطلحات وحدها هي مجال الصعوبة، بل إنّ الأمر يتعلق بروح اللغة وذهنيتها كلها. والعربية سوف تعيش هذا النّوع من التطوّر بعد ذلك بقرون وفي القرن التاسع عشر غبان حركة ترجمة الشيخ رفاعة الطهطاوي (1801م-1873م)، والذي يعتبر نموذجا أولا وفريدا من نوعه لما يسمى بالوسيط الحضاري.

5- من بغداد إلى قرطبة، رحلة العلوم خلال اللّغات :

من القرن التاسع حتى نهاية القرن الثالث عشر ميلادي، كانت العربية لغة العلوم بامتياز، إن لم تكن لغة العلم الوحيدة الحيّة.

ماهو دور العلوم اليونانية التي كان العرب يسمونها "علوم القدماء" في تكون العلوم وتطورها ؟ يكفي في العلوم الإنسانيّة أن نذكر مثال تأثير الفلسفة في علم الكلام. وفيما يتعلق بالعلوم البحتة أو التجريبية فإنّ العرب الذين أكبوا على قراءة ما ترجم ودراسته، قد بدأوا بعد ذلك ينشؤون أسسا للعلم وللمعرفة، وصاروا يقرأون التّرجمات، ويصححونها، ويعيدون صياغتها، وبدأوا ينتجون جديدا في هذه العلوم وكانت العربية في ذلك الوقت تتطور وتصبح شيئا فشيئا لغة علميّة، لغة علم وبحث وفكر علمي. وابتداء من هذا الأساس يمكننا بالطبع أن نفهم ونقبل أن تسمى هذه العلوم الإنسانية وتلك العلوم التجريبية "علوم الإسلام" أو "علوم الحضارة العربيّة والإسلاميّة". فهي عربيّة كتبت ودرست وتطورت باللغة العربية، وهي كذلك إسلاميّة لأنّها تمّت ممارستها وتطويرها ودراستها في أحضان ثقافة وسياسة مجتمعات يحركها ويقودها الإسلام، وهو الإطار العام الذي يجمعها.

إنّ المؤرخين الملمين الكبار، مثل المسعودي (ت957م) وابن الثير (ت1234م) وخصوصا ابن النديم (ت بعد 1000م) والشهرستاني (ت 1153م) يذكرون بالتفصيل أسماء كبار العلماء غير المسلمين وغير العرب مشيرين إلى دورهم الكبير في التّرجمة وفي إنشاء العلوم وتطورها في الإسلام، ويسمّونهم فلاسفة الإسلام ويسمّون هذه العلوم، العلوم الإسلاميّة أو العلوم في الإسلام.

وفي عهد الخلفاء الأمويّين في الأندلس، كانت قرطبة في حالة تنافس وسباق ثقافي وعلمي مع بغداد. يقول خوان فرنيه: "في عهد عبد الرّحمن الثّاني (206هـ/822-238هـ/852) بدأ ظهور أوائل العلوم الجديرة بهذه التّسمية، والّتي وصل إنتاجها إلى مستوى أعلى من مستوى العهد الكاروليني، والتي فاقت المؤلّفات اللاّتينية العربيّة في الفلك والطبّ.

إنّ تلك الفترة يختارها المؤرّخون من أهل هذه البلاد مثل ابن جلجل والقاضي ابن سعيد كأصل وأساس لكتاباتهم التّاريخية والعلميّة المحترمة. الأوّل طبيب وهلينستي من قرطبة وكان يعمل في عهد الخليفة الحكم الثّاني وفي عهد الخليفة هشام الثّاني...

والمؤلفان ابن جلجل والقاضي سعيد متفقان تماما على أنّه يجب تحديد بدايات العلوم في الأندلس بعهد عبد الرّحمن الثّاني في تلك الفترة ظهر في الغرب نظام التّرقيم العشري وصنع عبّاس ابن فرناس القبّة الفلكيّة الصناعيّة، وساعة الحائط، ودرس خطوات تقطيع الزّجاج من الصخر وحاول الطيران" [9].

إنّ الفلك والفلكيين في بلاط قرطبة كانوا يقلدون نظراءهم في الشرق، وكانوا يرتدون زيّا موحدا يميّزهم في بلاد هشام الأوّل (172هـ/788م). وفي ذلك الوقت، وصل إلى قرطبة ذرياب الموسيقي العراقي الكبير (ت243هـ/857م) الذي أدخل لعبة الشطرنج التي كانت مدونة قبل ذلك عند

---

9) خوان فرنيه، المرجع السابق، ص ص 39-40.

الوزير الساساني بزرجمهر (في القرن الرابع ميلادي) والتي انتشرت في الشّرق.

الطبيب الحراني هو احد أوائل الأطباء المسلمين الذين يتفرغون تماما في شبه الجزيرة الإيبيرية. وخلال تأسيس العلوم وتطويرها في إسبانيا الإسلاميّة، كان ثمّة حوار ثقافي ولغوي يصاحب كلّ ذلك :

"ترسخت طائفة من التقاليد الفارسيّة من بينها يمكن أن تعدّ لعبة الصولجان (Polo)، والاحتفال بالأعياد مثل عيد النيروز وعيد المهرجان الذي كان يختلط بعيد القديس يوحنا المعمدان" [10].

لم يكن لإسبانيا قبل ذلك علاقة بالثقافة اليونانية، إنّما بدأ ذلك فقط مع المصادر العربيّة الإسلاميّة التي كانت قد طورت العلوم، في المشرق الإسلامي ثم في المغرب، وعندئذ بدأت تجد طريقها نحو الحياة العلمية.

يقول ابن جلجل : "من بين نصارى قرطبة، لم يكن ثمّة من يستطيع أن يقرأ اليونانية، مدرسة الفلسفة والعلوم" [11].

ومن بين اليهود في إسبانيا الإسلاميّة (الأندلس) من أكثر المغرمين بالعلوم العربيّة والنشطين في تحصيلها حسداي بين شفروط الذي وافق عهد عبد الرحمن.

في هذا السّياق، يجب التوقف طويلا للحديث عن دور اليهود، طلابا عند المسلمين ثمّ أساتذة فيما ذوي دور في نقل العلوم الإنسانية والعلوم التجريبيّة في الأندلس، ثمّ في نقلها بعد ذلك إلى أوروبا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين.

في المشرق كان الربى سعديا بن يوسف الفيومي، المسمى ربي سعديا جاؤون (882-942م) فيلسوفا ومتكلّما يهوديّا معاصرا للرازي (865-925م) قد

10) المرجع السابق، ص 40.

11) المرجع السابق، ص 83.

درس علم الكلام الإسلامي وخصوصا الاعتزال، وهضمه وتمثله في المناظرات مع المسلمين من جانب، ومع مخالفيه من القرائين اليهود من جانب آخر.

كان ربي سعديا الفيومي يكتب بالعربيّة اليهودية وهي لغة عربية بحروف عبرائية كانت مستخدمة لدى الأغلبيّة الساحقة من الكتاب والفلاسفة واللاهوتيين والعلماء اليهود في المشرق والمغرب الإسلاميين، حيث يلمع اسم موسى ابن ميمون (1135-1204هـ). إنّه واحد من أكبر علماء اليهود العرب في الأندلس، وإن قضي النصف الثاني من حياته في القاهرة حيث اخذ ابنه إبراهيم استكمال مسيرته. أمّا إسبانيّا الإسلاميّة- الأندلس فقد عرفت فيما بين 1054 و1180م، أسماء كبيرة مثل سليمان بن جبيرول وبهيابن بن بقودا وموسى بن عزرا وأبراهام بن داود. كان هؤلاء قد نبتوا في أرض العلوم والحضارة الإسلاميّة الأندلسيّة ثمّ ساهموا في إثرائها وتنويعها في مجالات العلوم، ومن خلال المحاورات والمناظرات. وهذا مثال حي وملموس للتّعايش والمشاركة ظل نموذجا ومثالا يحتذى لحياة حضاريّة غنية بالعلم.

5- من طليطلة وبالرمو إلى أوروبا :

إذا كان القرن الثّالث الهجري (الثّامن الميلادي) هو قرن الترجمة وميلاد العلوم في بغداد، فإن القرن الخامس الهجري (الثّاني عشر الميلادي) سيكون بدوره قرن الترجمة والإخصاب وميلاد العلوم، أو ظهور النهضة في العالم الغربي، أي في أوروبا.

كانت نقطة البداية والانطلاق في ذلك الوقت مدينتين كبيرتين كانتا حاضنتي المكتبات الكبرى والعلوم في الغرب الإسلامي هما طليطلة الأندلس، وبالرمو صقلية.

يقول عبد الرحمن بدوي : "... وتمت عملية الإخصاب بين الفكر العربي البالغ كمال تطوره وبين العقل الأوروبي، وهو بسبيل يقظته وتلمس طريقه في البداية، تمت عملية الإخصاب هذه في منطقتين هما : الأولى إسبانيا وفي

مدينة طليطلة منها بخاصّة والثّانية صقليّة وجنوب إيطاليا خصوصا في عهد ملوك النّورمان..

كانت طليطلة بعد أن استردّها الأسبان قد أصبحت على الحدود بين الدّولة الإسلاميّة في الأندلس والدّولة النّصرانية في سائر إسبانيا منذ سنة 1085" (12).

تلك المدينة كانت كما يقول بدوي زاهرة بمكتباتها العظيمة خصوصا وقد انتقل إليها آلاف المجلّدات من المشرق كما يقول خوليان ريبرا.. وكان فيها ثلاث طوائف قويّة تعيش إلى جوار بعضها البعض: المسلمين والنّصارى واليهود.

وتولت الطائفة الثالثة التوسط بين الطائفتين الأخريين سواء في التجارة وفي نقل العلوم وشجّع على قيام حركة نقل الكتب العربيّة إلى اللاتينية – إمّا بتوسّط اللغة العبريّة أو اللّغة الدراجة الرّومانية – مطران طليطلة ريموندو (1126–1152م) وتلاه خلفاؤه من المقارنة حتّى استمرت هذه الحركة طوال أكثر من قرن"

ويخبرنا المؤرخون أن المترجمين كانوا في البداية أكثر اهتماما بنقل العلوم التي تطورت عند العرب عن الأصول اليونانية. وقد رأينا قبل ذلك، أوروبا مقفرة من العلوم منذ زمن طويل بينما كانت العلوم قد تطورت في العربية في بغداد وغيرها من عواصم العالم الإسلامي، واختيار الكتب القائمة على العلم اليوناني أوّلا كان له مثيله عند العرب في بغداد في القرن التاسع الميلادي عند بدايات الترجمة إلى العربيّة عندما كان المترجمون يفضلون في البداية أن يبدأوا باختيار الكتب ذات الأصول السّامية والأصول المشرقية الفارسيّة وغيرها في العلوم وعلى وجه الخصوص كتب الأفلاطونيّة الجديدة. ويحفظ التّاريخ بعض تفاصيل الحياة الثقافيّة في طليطلة :

---

12) بدوي عبد الرحمان : دور العرب في الفكر الأوروبي، المرجع السّابق، ص 6.

".. وكان على رأسهم المترجمون منهم الشماس دومنجو جو نصالب المتوفي حوالي 1180م وبرز نشاطه في الفترة ما بين 1130 و1170، ويعدّ أشهر رجال الترجمة في العصر الوسيط من العربيّة اللاتينية عن طريق الإسبانية العامية" (13).

إنّ الحاجة مازالت ملحّة إلى أيّة دراسة لغويّة مفصلة للترجمات في تلك الفترة لنرى حقّا كيف تتحاور اللغات في مجالي الفكر والعلم.

إنّ دور اللغة العبرية خلال القرن الثالث عشر بوصفها لغة وسيطة بين العربيّة لغة العلم ولغة النّصوص العلميّة وبين اللّغة اللاتينية المتلقية لم يكن دوما شفويا لأنّه مازالت لدينا النسخ العبرية لأغلبيّة النّصوص.

إنّ الدّراسات في هذا المجال أي الدراسات المقارنة للنصوص العلمية العربيّة وبين النّسخ العبريّة وبين اللغة المتلقية أي اللاتينية مازالت في غاية الأهمية.

إنّ الأستاذ المغربي أحمد شحلان في رسالته للدكتوراه تحت إشراف المرحوم الأستاذ حاييم الزعفراني في جامعة باريس سنة 1988 قد درس جيدا هذه القضايا في إطار أعمال ابن رشد ولكن مازلنا عند هذه الخطوة ولم ينجز تقدم كبير بعد ذلك.

كيف استطاعت اللغتان العبرية والبروفنسالية أن تستقبلا النّصوص العلمية والمعايير والمصطلحات على مستوى لغوي تقني ؟ واللغة اللاتينية في ذلك العصر بدورها كيف استطاعت ممارسة الحوار العلمي مع العربيّة والعبريّة والبروفانسالية ؟ كيف تمّ التبنّي والتطور اللغوي ؟ القدر ؟ المصادفة ؟ أم أنّ طبيعة الأشياء وسيرورة التّاريخ هي الّتي اختارت أن تكون اللّغة السريانيّة في بغداد بوصفها لغة سامية لتأخذ من اليونانيّة لغة هندو أوروبيّة لتعطي العربية لغة سامية أخرى أختا للسرياليّة ؟

---

13) المرجع السابق، ص ص 7-8.

ثمّ بعد ذلك بعدّة قرون تأتي اللغة العبرية لغة سامية هي كذلك بعد أن كانت قد استسلمت للغات أخرى، تستيقظ لتؤدّي الدّور ذاته، وإن كان في اتّجاه آخر معاكس، أي تأخذ من العربيّة لتعطي اللغة اللاّتينية.

من المهمّ جدّا أن نفهم كيف أنّ اللّغات السّامية الثّلاثة (العربيّة والسريانية والعبريّة) لغات نصوص مقدسة وشعر قد أدّت في هذه السّياقات التّاريخية الخطيرة من حياة البشريّة، وبكفاءات جيّدة، الدّور الذي قامت به وصارت بذلك لغات علوم وحوار وتبادل بين الحضارات.